بعد الأحداث التي وقعت في عام ٢٠١٣م، وتعرض الحركات الإسلامية سواء المعتدلة أو المتطرفة لضربات موجعة من قبل الأنظمة الحاكمة والنظام العالمي، تعرض أنصار هذه الحركات للقتل والاعتقال والمحاكمات والمطاردة، وبعدما كانت المظاهرات تملئ الشوارع في بداية الأحداث؛ اختفى كل ذلك وأصبح لا يرى أو يسمع إلا صوت أنين المضربين أو آهات المختفيين، ومن ثم دفع بعض الباحثين الكتابة والحديث عن أفول حركات الإسلام السياسي.. لكن هل هذا حقيقي؟

من الدراسات التي سيقت، نستطيع أن نخرج بحقيقة أن الضربات الموجهة لهذه الحركات هي أعنف موجة توجه لها على مدار تاريخها، غير أن المتتبع لحركات الإسلام السياسي المعتدل يدرك أن هذا الحركات لن تأفل ولن تغيب، لكنها قد تضعف، ويختفي أثرها لأوقات قصيرة أو طويلة.

لقد كان صعود هذه الحركات ظاهرة غير متوقعة في هذا الوقت غير أنها كانت تهدف لتطبيق منهجها الشمولي في فهم الإسلام، يقول سعد الدين إبراهيم: «إن الحركات الإسلامية تسعى إلى بناء نظام اجتماعي جديد قائم على الإسلام، وتحدث في دراسات أخرى عن العوامل المؤثرة في صعود هذه الحركات، مشيرًا إلى مسائل مثل الهوية، والتحديث، والميراث الثقافي، والمشكلات الاقتصادية والاجتماعية والمشاركة السياسية، والسيطرة الأجنبية ثقافيًا وسياسيًا»[١].

لم تصل حركات الإسلام السياسي إلى سدة الحكم فجأة كنتاج لثورات الربيع العربي، لكن هو نتاج عمل تراكمي سابق، وبالتالي فإن عملية الوصول إلى السلطة هو تتويج لذلك العمل النضالي الطويل، كما أنه ترجمة حقيقية لمستوى النفوذ الذي تتمتع به تلك الحركات في الوسط الاجتماعي.

فكان من أسباب الصعود لهذه الحركات:

١- انسجام خطاب الإسلام السياسي مع البيئة الاجتماعية

---

(١) Saad Eddin Ibrahim, Islamic Militancy as a Social Movement: the Case of Two Groups in Egypt

لقد تبنت حركات الإسلام السياسي في مختلف الساحات الإسلامية في شعاراتها حمل لواء الدفاع عن كرامة الأمة ليس لأغراض تكتيكية أو أهداف فئوية أو شخصية ضيقة، بحسب شعاراتها، ودفعت ثمن موقفها هذا، وجادت بأرواح خيرة أبنائها في سبيل الدفاع عن الحقوق، فحازت بسبب ذلك على مصداقية عالية من شرائح المجتمع، فكانت بذلك العنوان الحقيقي والممثل الأمين لكرامة الأمة.

٢- مناهضتها للاستبداد الداخلي والاحتلال الخارجي

لقد قاومت الحركات الإسلامية الأنظمة المستبدة الحاكمة، ودفعت الثمن المقابل لهذه المقامة المتمثل في اعتقال وتعذيب ونفي أفرادها، ولم تكتف بمقاومة الاستبداد الخالي، فهي كانت على الدوام أيضا تقاوم كل أشكال الاحتلال والاستعمار والوصاية الخارجية، مما جعلها مظلة للدفاع عن الأمة وكرامتها ورافعة أساسية لنيل حقوقها وحريتها.

٣- الاتكاء على أرضية الدين والعمل التطوعي الإنساني

الحركات الإسلامية هي انعكاس وتجسيد للتدين، لذلك هي متكيفة معه في عملها ومشروعاتها وخطاباتها. وقد شكل الدين للحركات الإسلامية عاملًا مهمًا للتحشيد والتأثير، خصوصًا من خلال العمل الدعوي والتطوعي عبر المساجد والمواقع العبادية الأخرى.

٤- استبداد الأنظمة العربية وفسادها

في الوقت الذي تتمتع الأنظمة العربية بمزيد من القوة الفائضة أحيانًا على صعيد أجهزتها الأمنية والعسكرية والمخابراتية، هي ضعيفة إلى حد الهشاشة على الصعيد الشعبي، بل إن شرعيتها المنقوصة مهزوزة ومهترئة أيضا، وذلك بسبب إيغالها في الفساد بمختلف إشكاله إلى جانب احتكارها للسلطة والثروة، وإقصائها للشعب عن المشاركة، في حين أنه مصدر الشرعية والسلطة.

ومما لا شك فيه أن تحقيق الجماعات الإسلامية في دول عربية مختلفة، فيما مضى، لنتائج مفاجئة في الانتخابات التشريعية والبلدية، وفي انتخابات النقابات المهنية والعمالية، كان له

الأثر الكبير في ارتفاع أسهم الإسلام السياسي في الشارع العربي. ولقد تم ذلك في ظل وجود أنظمة سياسية عَلْمانية عربية هشّة وفاسدة، لم تستطيع من خلال سياساتها الفاشلة أن تحقق الحد الأدنى من غايات وتطلعات شعوبها، التي اكتوت بنار الفقر والبطالة والحرمان وسوء الأحوال المعيشية، في الوقت الذي كانت فيه الطبقة الحاكمة تتمتع بالثروات الوطنية وتتلاعب بها[٢].

إنّ وصول حركة سياسية إلى السلطة باسم الإسلام، والعمل على تعزيز الهوية الإسلامية هو أمر مشروع، لكن هذه التجارب تعثرت ولم تستكمل حكمها لأسباب عدة، سواء من ذات الحركة وفهمها أو عوامل خارجية، ومن ذلك:

١- توقف الحركة عند مهمة الدفاع عن الهوية وترصيص صفوفهم

كان على الإسلاميين أن يدركوا حقيقة أن التنظيمات المجتمعية الثورية التي ولدت أثناء وبعد (الربيع العربي)، وواجهت آلات القمع التقليدية بكل بسالة، واستطاعت أن تنجز مهمة إسقاط الحكومات الديكتاتورية العريقة، لم يعد بالإمكان التعاطي معها بلغة القوة والتهديد والقسر، ولا بد لهم من إنتاج خطاب توافقي، يستوعب المجتمع بكل أطيافه وتوجهاته.

٢- عدم الانفتاح على الآخرين

لقد ظلت الحركات الإسلامية في مقارعة السلطة القائمة، والتهاء قادتها ورجالها بأمور تخص التنظيم الداخلي لصفها، أما مسألة «التمكين» التي تبشر بها فلم تتحول إلى فكرة واثقة عند الإسلاميين، وإنما ظلت مجرد «أمل منتظر» تسعى إليها.

لقد انغلقت الحركات على نفسها وعلى تنظيمها مما جعلها وحيدة في ساحة الصراع مع القوى المضادة، بالإضافة للتناحر الذي كان بين الحركات الإسلامية بعضها البعض زاد من هرم وضعف هذه الحركات.

٣- التربص بحركات الإسلام السياسي

---

[٢] محمد الشيوخ نقلا عن عبد المنعم، سليمان: "أسباب صعود تيار الإسلام السياسي بعد الربيع العربي"، ٢٠١٢م.

منذ أن احتلت هرم السلطة في العديد من الدول عمدت كل القوى المضادة لإسقاط هذه الأنظمة الإسلامية بل وإظهارها بمظهر الفشل، وتسخير المراكز البحثية لإيجاد السبل لإفشال هذه التجربة التي كانت تهدد كل عروش الأنظمة المستبدة والأسرة الحاكمة والتي خشيت أن تمتد هذه الانتفاضات إلى بلادها فتزيل الأنظمة التي كانت تحكم.

أسباب السقوط كثيرة ليس مجالها هذا البحث، لكن هنا أردت أن أصل هل ما يساق من فشل وأفول الإسلام السياسي كان واقعيا أم أنه انزواء لفترة ثم يعود مرة أخرى؟

فالواقع ومجريات التاريخ تؤكد أن الحركات الإسلامية المعتدلة لن تنزوي أو تنتهي، لكنها ربما تضعف بعض الوقت في ظل ظروف معينة، أو تغيب لفترات معينة لكنها حينما يتحين لها الفرصة ستعود مرة أخرى والشواهد على ذلك كثيرة سواء في مصر أو غيرها.

فقد رأينا كيف تعرضت جماعة الإخوان المسلمين إلى الضربات المتتالية في عهد الملكية، حينما أصدر النقراشي باشا الحاكم العسكري قرار بحل الإخوان المسلمين عام ١٩٤٨م واعتقال أفرادها وظلت الجماعة في محنتها حتى عادت بعد ثلاث سنوات، وما كادت تستفيق من صدمتها حتى وجهت لها ضربة أقوى في عهد العسكر عام ١٩٥٤م وغيبت الجماعة أكثر من عشرين عامًا خلف السجون حتى ظن الجميع أنه لم يعد لها وجود لكنها لم يمر عليها سنوات قليلة حتى عادت لمكانتها مرة أخرى وأصبح لها أنصار كثر، وقد فاجأت الجميع بما اكتسبته من انتخابات ١٩٨٤ و ٨٧ ثم ٢٠٠٠ و٢٠٠٥م رغم الممارسات القمعية والمحاكمات العسكرية التي كانت تمارسها السلطة ضدها.

وفي فلسطين رأينا كيف كانت حماس تعيش في كنف الخيانة والتجاهل حتى كانت انتخابات ٢٠٠٦م والتي أذهلت الجميع وفازت.

وفي تونس ورغم المحن التي تعرضت لها الجماعة على يد بورقيبة أو زين العابدين بن علي حيث تعرضوا للقتل والنفي والبعد عن الأوطان والغربة لكن ما إن انطلقت شرارة الثورة وعادوا لأوطانهم كانت لهم اليد الطولى في الانتخابات.

ولا نغفل ليبيا والتي كان العقيد القذافي يقتل رجالها وينفيهم خارج البلاد، ومع ذلك حينما عادوا بعد الثورة شاركوا في الحكم كقوة.

إذا الحركات الإسلامية المعتدلة تحمل عوامل قوتها في داخلها، والتي تجعلها تتحمل الضربات والمحن التي تواجهها، ومنها:

١- الفكرة والعقيدة

من العوامل القوية في بقاء هذه الحركات هي وجود فكرة تنطلق منها وتؤمن بها وتحيا من أجلها، وهي فكرة ربانية انطلقت من المفهوم الشامل للدين الإسلامي وتكونت في سبيله عقيدة راسخة.

٢- وضوح الهدف والغاية

كلما كان الهدف والغاية واضحين كانت التضحيات في سبيله عن قناعة، فالاعتقالات والموت والبذل في سبيل الفكرة لا ينتج إلا عن قناعة ووضوح للغاية التي يعمل من أجلها الإنسان، وليس هذا الهدف في الحركات الإسلامية فحسب، بل في جميع الشئون الحياتية، سواء في المؤسسات أو الشركات أو غيرها لا بد لها من وضح للهدف والغاية التي من أجلها يضحي الإنسان.

٣- التربية

من أهم مقومات القوة التي تمتلكها هذه الحركات هي عنصر التربية، والتي تعتني بأفراد الصف وتؤهلهم وتتابعهم في شئونهم وتصلح من أخطائهم وترشدهم للصواب، وهذا ما يميز هذه الحركات وليست كالأحزاب التي لا تهتم بتربية الأفراد.

كما أن التربية هي الوسيلة الفذة لتغيير المجتمع، وبناء الرجل، وتحقيق الآمال، فإذا كانت التربية محددة الأهداف، واضحة الخطوات، معلومة المصادر، متكاملة الجوانب، متنوعة الأساليب، مستمدة من الإسلام دون سواه، سيكون تأثيرها قوى على النفوس وتجعلها تقبل بالتضحيات في سبيل الفكرة.

٤- التكامل والشمول

لقد فهمت حركات الإسلام السياسي أن التربية لا تقتصر على جانب واحد من جوانب الإنسان، فلا تهتم مثلًا بالناحية الروحية أو الخلقية وتترك الناحية الاجتماعية، أو تهتم بالجانب الفكري وتترك الجانب التدريبي والبدني.. بل اهتمت بكلِّ هذه الجوانب جميعًا.

٥- الاعتدال والتوازن والوسطية

من أهم ما يميز هذه الحركات الاعتدال والتوازن في كل أمورهم فلا عندهم غلو ولا شطط ولا رفض للآخرين، وتوازن في التعامل مع جميع القضايا وجميع الأطراف، فيقول إحسان عبد القدوس في إحدى مقالاته عن شباب الإخوان: «وهم مع كل ذلك شباب مودرن، لا تحس فيهم الجمود الذي امتاز به رجال الدين وأتباعهم، ولا تسمع في أحاديثهم التعاويذ الجوفاء التي اعتدنا أن نسخر منها، بل إنهم واقعيون يحدثونك حديث الحياة لا حديث الموت، قلوبهم في السماء، ولكن أقدامهم على الأرض، يسعون بها بين مرافقها، ويناقشون مشكلاتها، ويحسون بأفراحها وأحزانها، وقد تسمع فيهم من ينكِّت ومن يحدثك في الاقتصاد، والقانون، والهندسة والطب»[٣].

٦- الأمل

«ما دام في قلوبنا أمل سنحقق الحلم سَنمضي إلى الأمام ولن تقف في دروبنا الصِعاب لندخل في سباق الحياة ونحقق الفوز بعزمنا فاليأس والاستسلام ليست من شيمنا».. كلمات تربى عليها شباب الحركات الإسلامية، فالأمل هي تلك النافذة الصغيرة، التي مهما صغر حجمها، إلّا أنها تفتح آفاقًا واسعة في الحياة، ولذا يدرك أنصار هذه الحركات أن بعد الظلم والاضطهاد نصر وعلو، ولهذا يعدوهم الأمل فثبتوا وتحملوا التضحيات.

٧- العمل الجماعي

من الدعائم القوية التي تحفظ كيان المؤسسات أو الحركات هو العمل الجماعي وعدم الفردية، أنه يؤدي إلى زيادة القدرة لدى الأفراد على التفكير بطريقة واقعية ومنطقية، والتي

---

[٣] إحسان عبد القدوس: روزاليوسف، ١٣ سبتمبر ١٩٤٥م مقال بعنوان الرجل الذي يتبعه النصف مليون.

تقوم على بناء معرفي وعلمي عند القيام بتقصي الحقائق، ومعرفة الأسباب الرئيسية لجميع الأعمال.

هذه بعض العوامل التي تجعل من هذه الحركات والجماعات المعتدلة لا تأفل، ورغم المحن والاضطهاد التي توجهها والتي تضعفها وتغيبها عن الحياة بعض الوقت، لكنها لا تزيلها ولا تقضي عليها، وهذه حقيقة يقرها الجميع سواء في الشرق أو الغرب.